معاهدات الصلح بين المسلمين ونصارى الجزيرة الفراتية خلال حركة الفتح العربي الإسلامي

عبد الحكيم غنتاب الكعبي

كلية الآداب والعلوم / جامعة بني وليد - ليبيا

Peace Treaties between Muslims and the Christians of the Euphrates Jezirah during the Islamic - Arab Conquest

ABSTRACT

The Islamic -Arab conquest set out during the second decade of the first century A.H., i.e, the seventh century A.D. As a result of that conquest, Syria and Iraq were liberated from the control of Byzentnies and Sassans. Then, the Islamic -Arab leadership found out that such a victory would never be safe without liberating the Euphrates Jezirah - the are which is surrounded by the upper Euphrates and Tigris and which includes northern Iraq and north - eastern Syria; it was also of a tremendous economic and military importance. This explains why the Romans did their best to ave that area, in particular, under their stronghold and brought great numbers of their forces to it.

The campaigns led by Idah bin Ghunm to liberate the Euphrates Jezirah started in 18 A.H. and lasted for eighteen moneth. Throughout those campaigns, most of the Jezirah cities were liberated peacefully. The cities inhabitants - who mostly embraced Christianity - supported the liberating Arab Muslims for the former looked forward to getting rid of the oppressive Byzantines and Sassans who tyrannized over them for several centuries.

The research analyses and discusses the peace treaties signed by Muslims and Christians of the Euphrates Jezirah during the liberation process. These treaties were documented in the Arab sources, especially, Kutubal futooh. They organized the Muslims - Christians relations, highlighted the early positive attitude of the Muslims towards the Christians there and safeguarded the religious as well as the civil rights of the Christians themselves.

تاريخ تسلم البحث: 2000/10/25 تاريخ قبول البحث: 2001/10/1

ملخص

انطلقت حركة الفتح العربي الإسلامي في العقد الثاني من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، وكانت أولى نتائجها تحرير بلاد الشام والعراق من الاحتلالين البيزنطي والساساني، وقد وجدت القيادة العربية الإسلامية - آنئذ - أن هذا الانتصار لن يكون في مأمن ما لم يتم تحرير الجزيرة الفراتية، وهي المنطقة المحصورة بين أعالي دجلة والفرات، وتشمل الجزء الشمالي من العراق والشمالي الشرقي من بلاد الشام، وكانت ذات أهمية أقتصادية وعسكرية كبيرة، لذلك تمسك الروم بالبقاء فيها، وحشدوا فيها أعدادا مهمة من قواتهم.

بدأت عمليات تحرير الجزيرة الفراتية سنة ٨١ للهجرة، بقيادة عياض بن غنم، واستغرقت ثمانية عشر شهرا، وقد حررت أغلب مدن الجزيرة صلحا، لأن سكانها - وكان أكثرهم يدينون بالنصرانية - ساندوا العرب المسلمين المحررين، وتطلعوا إلى الخلاص على أيديهم من تعسف وظلم الدولتين الساسانية والبيزنطية اللتين كانتا تتقاسمان احتلال هذه المنطقة لعدة قرون.

يتناول هذا البحث بالتحليل والمناقشة نصوص المعاهدات التي عقدها المسلمون مع نصارى الجزيرة الفراتية أثناء عملية تحريرها، كما أوردتها المصادر العربية ولا سيما كتب الفتوح، وقد نظمت تلك المعاهدات العلاقة بين المسلمين ونصارى الجزيرة، وعكست الموقف الإيجابي المبكر للمسلمين من النصارى، وضمنت حقوقهم الدينية والمدنية.

مقدمة:

أطلق البلدانيون العرب على الجزء الجنوبي من أرض العراق اسم (السواد) وعلى الجزء الشمالي منه اسم (الجزيرة)، وذلك لأن أعالي دجلة والفرات تكتنف سهول هذا الإقليم، وقد أطلق عليها اليونان اسم (ميزوبوتاميا)[1]، ويبدو أن المؤرخ اليوناني (بوليبوس 202-102 ق.م) كان أول من استخدم هذا المصطلح Mesopotamia ويقصد به ذلك الجزء المحصور بين دجلة والفرات، وهو يرادف مصطلح الجزيرة الذي أطلقه البلدانيون العرب

على الإقليم نفسه[2]، كما ورد ذكرها في العديد من المصادر العربية[3] باسم ((الجزيرة الفراتية)) لأن نهر الفرات يحدها من الشمال والغرب والجنوب، وتنتشر روفداه في معظم مساحتها.

شهد إقليم الجزيرة الفراتية انتشارا واسعا للديانة النصرانية بعد وقت قصير من ظهورها، وأصبحت خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد السمة الدينية الغالبة في الواقع الاجتماعي والثقافي للجزيرة[4]، إلى جانب وجود معتقدات أخرى كالوثنية واليهودية والصائبة، إلا أن هذه المعتقدات لم تكن ذات أثر واضح في الحياة الاجتماعية لعرب هذا الإقليم لقلة عدد معتنقيها.

لقد تعرض نصارى الجزيرة إلى أنواع الاضطهاد الديني في ظل تسلط الدولتين الساسانية والبيزنطية[5] اللتين كانتا تتقاسمان احتلال هذه المنطقة لعدة قرون، وكانت أرضها مسرحا لصراعهما الحربي الدامي الذي استمر حتى ظهور الإسلام وتحرير الجزيرة سنة 18-19 للهجرة/640/639 للميلاد في إطار حركة الفتح العربي الإسلامي التي انطلقت في مطلع القرن الأول الهجري / القرن السابع الميلادي.

أقر الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رض) (مطلع سنة 12 للهجرة / شباط 633م) خطة التحرير العامة، التي كانت تتضمن الهجوم على الفرس في العراق ومهاجمة الروم في بلاد الشام. وصدرت الأوامر إلى القادة: خالد بن الوليد وعياض بن غنم والمثنى بن حارثة الشيباني وخالد بن سعيد بن العاص لتنفيذها[6].

بدأت عمليات إنجاز خطة التحرير واستمر تنفيذها بحماس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وقد طرأ الكثير من التعديل على تفصيلاتها ومواقع القادة والجيوش فيها[7]. وانتهت بالنصر المؤزر واندحار الروم في معركة اليرموك (15 للهجرة – 356 ميلادية)[8]، وهزيمة الفرس في معركة القادسية (16 للهجرة – 636 ميلادية)[9] وتم تحرير العراق والشام واستتب وضع العرب المسلمين في هذه البلاد المهمة.

ويبدو أنه لم يكن هناك في إطار خطة التحرير الأولى إشارة إلى تحرير إقليم الجزيرة الفراتية على الرغم من أهميته العسكرية والاقتصادية، وربما كان سبب ذلك يعود إلى أن تفكير قادة العرب كان منصبا في البداية على توجيه الضربة إلى مركز نفوذ القوتين الكبيرتين (الساسانية والبيزنطية) في العراق والشام، وبعدها سيكون من السهل تحرير بقية الأجزاء من أرض العرب، فالجزيرة الفراتية تقع بين العراق والشام، وعلى الرغم من أنه كان فيها قوات عسكرية لكلتا الدولتين (الرومية والفارسية)[10] جاء قرار تحريرها فيما بعد، ويظهر أنه تقرر في مؤتمر الجابية[11]، وربما عجل بتنفيذه ما استجد من أوضاع في مسار عملية التحرير.

فقد وجد الخليفة عمر بن الخطاب ان انتصار العرب في الشام سوف لن يكون في مأمن ما لم يتم تحرير الجزيرة الفراتية، خاصة وأن الروم تمسكوا بالبقاء فيها وبدأوا يحشدون أعدادا كبيرة من قواتهم من الفرسان والمشاة، فدعا كبار الصحابة وجماعة من المهاجرين والأنصار واستشارهم في الأمر، فوافقوه على أهمية التعجيل بتحرير هذا الإقليم واتفق على أن يكون على رأس جيش تحريرها القائد العربي عياض بن غنم[12]: فكتب عمر إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح قائد جيوشه في الشام يأمره بأن يعقد عقدا لعياض ويجهز معه جيشا إلى أرض ربيعة وديار بكر[13]. ثم كتب كتابا آخر إلى عياض بن غنم بالولاية والمسير إلى أرض ربيعة وديار بكر، وبعث بالكتاب مع ساعدة بن قيس المرادي[14].

1 - سير عملية التحرير:

والمتفق عليه في معظم مصادرنا الأولية أن الجيش العربي الذي حرر الجزيرة قدم من سوريا وكان بقيادة عياض بن غنم[15]، وكانت مسيرة عياض إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة (18 للهجرة / 639 ميلادية) في خمسة آلاف مقاتل[16]، على

مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن جذيم الجمعي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمي[17].

ويختلف المؤرخون في التسلسل الذي حررت بموجبه مدن الجزيرة، فجميع المصادر السريانية وبعض المؤرخين المسلمين يذكرون أن الرها[18] كانت أول مدينة تحرر[19]، وربما جاء إجماع المصادر السريانية على ذلك نتيجة للأهمية الدينية والعسكرية التي تحظى بها مدينة الرها عندهم فيعدون تحريرها على يد المسلمين (خسارتهم) الأولى والمهمة، وأن نجاح المسلمين بدخول هذه المدينة هو الذي فتح أمامهم أبواب امدن الأخرى في إقليم الجزيرة الفراتية.

إن ما يورده البلاذري[20] وعدد آخر من المؤرخين المسلمين[21] من أن الرقة هي أول المدن التي تم تحريرها هو الأكثر قبولا، وذلك لأن إجماع المؤرخين على أن القوات العربية التي حررت الجزيرة جاءت من سوريا يؤكد هذا القول. فمن الطبيعي جدا ان يكون تسلسل تحرير المدن حسب ترتيب وقوعها على الطريق الذي سلكته تلك القوات، فالطبيعة الجغرافية وطبيعة الطرق والمسالك فرضت أن يكون تحرير المدن الجزرية كالآتي: الرقة ثم حران ثم الرها[22]، ومن غير المنطقي أن يبدأ الجيش العربي بمهاجمة الرها وهي المدينة الحصينة التي تقع في الجزء الشمالي من الجزيرة وفيها قوة عسكرية بيزنطية كبيرة، وتعد المركز الإداري للجزيرة ومقر الحاكم البيزنطي للمنطقة[23]، ويترك خلفه مدنا وأراضي غير محررة تتواجد فيها قوات للعدو وتكون حاجزا بينه وبين أرض الشام.

واستناداً إلى البلاذري فإن جيش المسلمين وصل إلى الرقة في موسم الحصاد ودام حصارها خمسة أيام أو ستة، وعلى إثر ذلك طلب الحاكم البيزنطي فيها الصلح وعقد اتفاقية للسلام، نصت بنودها على أن يدفع أهل المدينة الذين لم يدخلوا الإسلام الجزية للمسلمين مقابل منحهم الأمان على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم[24].

ومن المحتمل أن عياض بن غنم اندفع بعد ذلك باتجاه حران التي أغلق أهلها الأبواب

بوجه الجيش الإسلامي وطلبوا من قائد جيش المسلمين التوجه إلى الرها وهم موافقون على الصلح بالشروط نفسها التي يتم الاتفاق عليها مع أهل الرها[25] ويبدو أن سبب طلبهم هذا هو ما كان من تنافس سياسي واقتصادي وديني بين المدينتين[26]. فأتى عياض الرها التي كان أهلها والجيش البيزنطي الموجود فيها قد تأهبوا لقتال المسلمين ولكنهم هزموا أمام اندفاع الجيش الإسلامي، واضطروا إلى الاحتماء داخل سور مدينتهم، ولم يمض وقت طويل حتى وافقوا على الصلح، وأبرمت معهم معاهدة للسلام. ودخل المسلمون المدينة ومنحوا أهلها الأمان، عاد عياض بعدها إلى مدينة حران فدخلها وصالح أهلها على مثل صلح أهل الرها[27].

ويبدو أن تحرير الرها – المعقل البيزنطي الحصين – والمدينة ذات المكانة الخاصة لدى النصارى كان سبباً مهما لطلب المدن الأخرى الصلح من المسلمين وعقد اتفاقيات سلام معهم بعدما شاع من أخبار عن حسن معاملة المسلمين للسكان واحترام معتقداتهم وعدم التعرض لممتلكاتهم وحرماتهم واحترام العهود والمواثيق التي أبرمت معهم.

وقد واصل المسلمون تحرير مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى، فبعد تحرير حران توجه عياض إلى سميساط[28] ثم إلى دار[29] وتلا[30] وقرقيساء ونصيبين وسنجار، وطلب أهل هذه المدن الصلح على ما صولح عليه أهل الرقة والرها وحران[31].

وعندما حرر الجزء الشرقي من الجزيرة على يد القوات العربية القادمة من الموصل والعراق[32] في السنة (العشرين للهجرة /461 للميلاد) كان تحرير الجزيرة الفراتية قد اكتمل ولم يستغرق سوى ثمانية عشر شهرا فقط[33].

وعلى العموم فإن هناك شبه اتفاق بين المصادر العربية الإسلامية والسريانية على الخطوط العامة لعملية تحرير الجزيرة، وربما وردت بعض التفاصيل في المصادر السريانية[34] لم يرد ذكرها في المصادر العربية، على الرغم من أهميتها بسبب قدم تلك المصادر السريانية، واحتمال معاصرة بعضها تلك الأحداث إلا أنها في الغالب تكون

متحيزة ضد المسلمين، ولذلك لا يعول على بعض ما يرد فيها.

2 - موقف نصارى الجزيرة من حركة التحرير:

جاء الدين الإسلامي مكملا وخاتمة لكل الأديان السماوية، وقد وقف مع النصرانية في الشام والجزيرة موقف التسامح والود[35]، ولا شك أن تفهم الإسلام والإحاطة بدعوته التي تقدس الأديان السابقة وتؤمن بالأنبياء الذين جاءوا قبل رسول الله (ص) يعد مرحلة في التطور نحو تقبله واعتناقه، فقد آمن الناس على معتقداتهم كما أمنهم على أنفسهم وأموالهم وكان شعاره أن لا إكراه في الدين، فلم يضطرهم إلى اتباع عقيدته اضطرار القوي ولم يدفعهم دفع الملجئ، على حين كانت مسيرة العالم آنذاك والقوى المسيطرة فيه لا تتيح هذه الحرية للناس في أن يؤمنوا بالذي يشاؤون إلا في أضيق الحدود، بينما الإسلام أمنهم على عقائدهم وعلى كل ما يتصل بهذه العقائد من مقدسات وصلبان وكنائس[36].

فلا غرابة في أن نجد النصارى قد رحبوا بجيش التحرير العربي وانزلوا جنوده في البيع والديارات[37]، ولا سيما رؤساؤهم الذين عضدوا المسلمين أثناء حركة التحرير في العراق والشام والجزيرة وأرسلوا المدد إلى جيوشهم وقد أكدت ذلك المصادر السريانية نفسها[38].

فقد ذكر أن الجاثليق[39] يشو عياب الجدالي المتوفى سنة 26 للهجرة / 647 للميلاد، بعث برسالة إلى أحد أساقفة الفرس يقول فيها ((إن العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة المسيحية، ويودون القسوس والرهبان ويكرمون أولياء الله، ويحسنون إلى الكنائس والأديار))[40]. وأن المفريان[41] ماروثا المتوفى سنة 18 للهجرة /639 للميلاد فتح لجيوش المسلمين قلعة تكريت حقنا للدماء ورحب بقدومهم[42]، وفي نينوى استقبل مار[43] أمة الجيوش العربية وساعدها، وقدم لها المؤونة حتى أن مواقفه تلك كانت سببا في رجحان كفته على منافسيه رغم شيخوخته، فانتخبوه جاثليقا على كرسي المدائن سنة 24 للهجرة / 645 للميلاد[44].

ومع أن غالبية النصارى العرب ساندوا العرب المسلمين المحررين الأمر الذي دفع – علـى ما يبدو – سيف بن عمر إلى القول بأن (الجزيرة أسهل البلدان أمرا، وأيسرها فتحا)[45]، فإن بعضهم كان قد وقف موقف المعارض، وظهرت بعض المقاومة من نصارى عرب في هذه المدينة أو تلك، خاصة في بداية التحرير[46] وأن سبب ذلك على ما ذكره الواقدي[47] لم يكن نابعا من قناعات دينية ولكن لرغبة العرب في الاحتفاظ باستقلاليتهم، وربما وقف بعض منهم مترددا خوفا من بطش الروم أو الفرس الذين كانوا يتقاسمون احتلال الجزيرة، أو لأنهم تصوروا بادئ الأمر أن مجيء العرب هذا إلى الجزيرة الفراتية كان مجرد غارات للنهب والسلب، لكن موقفهم هذا تغير بعد أن انتصر العرب واستقر بهم الحال في تلك المنطقة ورأوا عظم الفارق بينهم وبين حكم الدولتين المحتلتين (الساسانية والرومية) وتسلطهما، فرجوا بهم واطمأنوا لحكمهم[48].

وقد ظل قسم من النصارى العرب على دينهم لزمن طويل، ومنهم بنو تغلب الذين تمسكوا بديانتهم ورفضوا دفع الجزية، واعتبروا دفعها انتقاصا من انتمائهم القومي، فصالحهم الخليفة عمر على أن يدفعوا ضعف صدقة المسلم[49].

3 - معاهدات الصلح بين المسلمين ونصارى الجزيرة:

أثناء عملية تحرير الجزيرة الفراتية أبرم القائدالعربي عياض بن غنم عددا من معاهدات الصلح مع سكان المدن الرئيسية في هذا الإقليم ضمنت حقوق المواطنين فيها مع تحديد التزاماتهم تجاه الدولة الجديدة، ولما كانت غالبية سكان إقليم الجزيرة ممن يعتنقون الديانة النصرانية، فقد تضمنت جميع تلك المعاهدات بنودا تضمن حقوق من ظل منهم على نصرانيته تطبيقا للمبادئ الإسلامية التي احترمت حقوق جميع أهل الكتاب.

وقد ذكرت المصادر الإسلامية ان هناك معاهدتين رئيستين أبرمتا في بداية عملية تحرير الجزيرة. الأولى مع أهل الرقة والثانية مع اهل مدينة الرها، وهما أول مدينتين تم

تحريرهما في الجزيرة، كما ذكرت تلك المصادر أيضا أن هاتين المعاهدتين اعتمدت بنودهما في العديد من المعاهدات المشابهة مع مدن الجزيرة الأخرى التي تم تحريرها، مكتفية بتلك الإشارة دون ذكر لنصوص تلك المعاهدات.

وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات في صياغة نصوص تلك المعاهدات التي وردت في هذا المصدر او ذاك إلا أن الملاحظ أن جوهرها واحد إلى حد كبير، وهذا ما سيعرض للنقاش.

ذكر البلاذري نص المعاهدة التي عقدها عياض بن غنم مع أول مدينة حررت في الجزيرة وهي الرقة على الشكل الآتي:

((بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التي عليهم، ولم يحدثوا مغيلة، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوسا ولا باعوثا[50] ولا صليبا، شهد الله، وكفى بالله شهيدا... وختم عياض بخاتمه))[51].

أما النص الذي يورده ابن أعثم الكوفي فيختلف عما ذكره البلاذري، ويشتمل على تفصيلات أكثر، إذ يذكر لنا حوارا دار بين عياض وبطريق مدينة الرقة (٢٥) الذي خاطبه عياض قائلاً:

((.... وأني أدعو إلى قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا قلتم ذلك وصمتم وصليتم وأديتم زكاة أموالكم، وأحللتم ما أحل الله لكم، وحرمتم ما حرمه عليكم، فقد حرمت علينا دماؤكم وأموالكم إلا بحقها، وحسابكم على الله، قال البطريق: فإن لم نقل ذلك؟ قال عياض: فإن لم تقولوا ذلك فأدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وكونوا لنا ذمة وقروا في دياركم على دينكم، ونحن نذب عنكم من بغاكم من أعدائكم، قال (البطريق): أيها الأمير: فإني أقيم على ديني ولا أفارقه، وأصالحك على ما تريد، فصالحة عياض على عشرين ألف دينار عاجلة، ووضع على كل محتلم منهم في كل

سنة أربعة دنانير، وكلما أدرك منهم غلام يلحق بالجزية، وعليهم بعد ذلك العشر في مواشيهم، وعليهم الضيافة للمسلمين إذا نزلوا بهم ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فلا يؤخذ منهم شيء إلا بثمنه، فرضى بذلك بطريق الرقة بما صالحه عليه، وأشهد المسلمين وختمه بخاتمة ودفعه إليه))[53].

والمدقق في النص الذي ذكره ابن أعثم مقارنا بما جاء عند البلاذري يمكن أن يقف عند النقاط التي تلفت نظر الباحث، وأهمها:

ينفرد ابن أعثم بذكر أن عياض اشترط على بطريق الرقة للصلح دفع مبلغ (عشرين ألف دينار عاجلة) فضلا عن فرض (الجزية) على الرجال و (العشر) على المواشي، ولكنه لم يذكر أن هذا المبلغ في أي باب يمكن حسابه من أبواب الضرائب التي كان يفرضها المسلمون عادة وهي: الجزية والخراج والعشر، كما أنه لم ترد إشارة إلى الاعتبارات والأسس التي في ضوئها حدد هذا المبلغ، إذ لم نجد في نصوص المعاهدات مع مدن الجزيرة الأخرى مثل هذا الشرط.

كما يلاحظ أن المعاهدة تضمنت فرض ضريبة (العشر) على نصارى المدينة وهي ضريبة تؤخذ من المسلمين فقط (على محاصيلهم ومواشيهم) ولم يستثن من ذلك إلا نصارى بني تغلب الذين أبرمت معهم اتفاقية خاصة، فكان يأخذ منهم العشر وضعف صدقة المسلم (مقابل الجزية)[54] للاعتبارات التي سبقت الإشارة إليها، أما غير المسلمين فتؤخذ منهم الجزيرة على الرجال البالغين والخراج على الأرض ومحصولها.

والملاحظ أيضاً في نص ابن أعثم أنه تناول الالتزامات المالية لسكان المدينة تجاه الدولة الإسلامية فقط وبشيء من التفصيل مع عدم الإشارة إلى الضمانات والحقوق التي حفظتها الدولة الإسلامية لكل الأديان والمذاهب، وهو ما ورد تقريبا في جميع الاتفاقيات مع المدن الأخرى، كما أنه يمكن التساؤل هنا: هل كانت ظروف حروب التحرير المبكرة والسعي لطرد القوات الأجنبية المحتلة وإخضاع مناطق واسعة تسمح بالدخول في تلك

التفصيلات؟ وفي ضوء ذلك وعلى الرغم من أن كتاب ابن أعثم على درجة كبيرة من الأهمية، ويعد مصدرا مهما لدراسة مراحل تحرير الجزيرة لما بذله المؤلف من جهد كبير في تفسير مواقف وتوجهات قادة المسلمين تجاه حركة التحرير، نستطيع الاستنتاج أن تلك الاتفاقية ربما تكون قد صيغت فيما بعد، وأن ما أورده البلاذري كان أقرب إلى واقع الحال وإلى ظروف واعتبارات تلك المرحلة من التاريخ.

وعقد عياض بن غنم اتفاقية ثانية مع أهل مدينة الرها، وهي الاتفاقية التي اعتمدت أساسا للصلح مع بقية مدن الجزيرة التي تم تحريرها تباعا، وعلى الرغم من تعدد النصوص لتلك الاتفاقية نجد بنودها متقاربة المعنى إلى حد كبير، وأنها امتازت بكونها مختصرة ولا تحتوي على تفصيلات كثيرة، وقد ذكر البلاذري المعاهدة بثلاث صيغ:-

الصيغة الأولى: معاهدة مع أستف الرها

((بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عياض بن غنم لأسقف الرها، إنكم إن فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا إلي عن كل رجل ديناراً ومُدّي[55] قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم، وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين، شهد الله، وكفى بالله شهيدا))[56].

يلاحظ في صيغة المعاهدة هذه أنها خلت من الإسناد خلافا للنصوص الأخرى التي ذكرها البلاذري، وربما اكتفى بصيغة الإسناد الجمعي ((قالوا)) التي وردت في بدء الرواية، واشتملت هذه المعاهدة على تفصيل يحدد الضريبة المفروضة على أهل المدينة مقابل تعهدات المسلمين تجاههم بالأمن والحماية.

والصيغة الثانية التي ذكرها البلاذري أيضاً كما يأتي:

((وحدثني داود بن عبد الحميد عن أبيه عن جده، أن كتاب عياض لأهل الرها: بسم

الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها، إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم إذا أدوا الحق الذي عليهم، ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته المسلمون))[57].

أما الصيغة الثالثة التي ذكرها البلاذري لاتفاقية الصلح مع أهل الرها فقد جاءت كما يأتي:

((حدثني بكر بن الهيثم، قال: حدثنا النفيلي عبد الله بن محمد، قال: حدثنا سليمان بن عطاء، قال: لما فتح عياض بن غنم الرها وكان أبو عبيدة وجهه، وقف على بابها على فرس له كميت، فصالحوه على أن لهم هيكلهم وما حوله، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة إلا ما كان لهم، وعلى معونة المسلمين على عدوهم، فإن تركوا شيئا مما شرط عليهم فلا ذمة لهم، ودخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها))[58].

ويجد الباحث أن تلك النصوص الثلاثة التي ذكرها البلاذري تبدو وكأن كل واحد منها يكمل الآخريّن[59] فالاتفاقية مع أسقف الرها اشتملت على تفصيلات دفع الضرائب وتعهدات المسلمين لأهل الرها بضمان الأمن والدفاع عنهم، وجاء في النص الثاني تعهد عام من قائد المسلمين في إقليم الجزيرة لأهل الرها لضمان حريتهم وحقوقهم مقابل إيفائهم بما عليهم من شروط حددتها المعاهدة أو (النص) الأول، في حين جاءت في النص الثالث بنود تتعلق بالحقوق الدينية للنصارى وحدود حريتهم في ظل الدولة الإسلامية، وانفرد النص الثالث بذكر عبارة ((ودخل أهل الجزيرة فيما دخل فيه أهل الرها)) وهو تأكيد على أهمية الاتفاقيات التي أبرمت مع هذه المدينة ذات الأهمية السياسية الكبيرة لعموم مدن الجزيرة الأخرى.

وروى القشيري مؤلف كتاب (تاريخ الرقة)[60] معاهدة عقدها عياض بن غنم مع أهل الرها، وفيها بعض الاختلاف عن النصوص السابقة، وتشتمل على تفصيلات أكثر، وفيما يأتي نص المعاهدة:

((حدثني جعفر بن فتح بن سلومة الجمراني عن إسماعيل بن يزيد القصير عن جعفر ابن برقان عن معمر بن صالح عن العلاء بن أبي عائشة، قال: كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز على الرها فجاءني كتابه، إنه بلغني أن عند أهل الرها صلح الجزيرة، فابعث (به) إلى حتى أنظر فيه، قال: فبعثت إلى أسقفهم حتى أتاني به في درج أو جرة فقرأته فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب لأهل الرها وأهل الجزيرة من عياض بن غنم عامل عمر بن الخطاب (رض) قد أتاها على بابها الشرقي على فرس أحمر محذو على أربعة عشر فارسا فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فدعاهم إلى الصلح فأجابوه وقالوا: على أن نشترط عليكم، قال: اشترطوا ، قالوا: فإنا نشترط صليبنا وكنائسنا وطواحيننا وما كان لكنائسنا من غلة على أن يؤدى خراجها، قال عياض: ونحن نشترط عليكم، قالوا اشترطوا، قال: نشترط عليكم أن لا تضربوا ناقوسا إلا في جوف كنيسة ولا تغيروا في بلاد المسلمين وعلى أن تقروا ضيفهم يوما وليلة، وعلى أن تحملوا راجلهم من رستاق إلى رستاق، وعلى أن نشاطركم منازلكم، ينزلها المسلمون وعلى أن تنصحونا فلا تغشونا ولا تمالئوا علينا عدوا من غيركم، فإن وفيتم لنا وفينا لكم وإن غدرتم بنا استحللنا سفك دمائكم وسبي نسائكم، قالوا: فأنا رضينا، قال: أشهد الله وملائكته وكفى بالله شهيدا، فأجابوه. فأعاده لهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله)).

هذا النص الذي أورده القشيري احتوى على تفصيلات كثيرة، وإن بعضها لم تكن هناك أي ضرورة لذكره في معاهدات من هذا النوع (كوقوف عياض على باب الرها الشرقي على فرس أحمر محذو في أربعة عشر فارسا) كما أن بعض هذه التفصيلات لا يعتقد بأنها كانت معروفة أو لم تكن في الأقل لتدخل في متن نص المعاهدات في تلك الحقبة - بداية حركة التحرير - وإنما أملتها الحاجة أو التجربة لاحقا، أي بعد استقرار حكم العرب المسلمين في تلك الأقاليم كتحديد مدة ضيافة المسلم ونقل الراجل من رستاق

إلى رستاق ...الخ.

كما أننا وجدنا في جميع نصوص معاهدات الصلح الأخرى أن القائد هو الذي يعلن مبادئه التي يحملها ويحدد شروطه للصلح والسلام، ولكننا نجد في هذا النص أن أهل المدينة هم الذين بدأوا بإعلان شروطهم قبل أن يقول عياض شروطه، وهو أمر يختلف عما ورد في النصوص السابقة. وبشكل عام إن هذا النص في جوهرة يحمل معاني وبنود الاتفاقيات أو النصوص السابقة نفسها، على الرغم من رجحان أنه قد صيغ فيما بعد.

إن تلك الاتفاقيات أو المعاهدات التي أوردتها المصادر كانت قد نظمت العلاقة بين المسلمين ونصارى الجزيرة الفراتية، وإنها كانت النواة التي أثمرت نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا رفرفت فوقه رايات الحق والعدالة قرونا طويلة.

هوامش البحث

(1) ادي شير، كلدو وآثور، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912-1913، ج2 ص1.

(2) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1 منشورات دار البيان، بغداد 1973، ص 11.

(3) انظر، ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1948 ج4 ص 232، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956 ج2 ص648 القلقشندي، ابن أبي العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة 1913-1922 ج٤ص314.

(4) ماري بن سليمان أخبار بطاركة كرسي المشرق من المجدل، روما 1899 ص ص1-5.

(5) المصدر نفسه: ص ص 10-23.

(6) كان ملخص الخطة كما يأتي:

أولاً: يتقدم خالد بن الوليد بجيشه من اليمامة في نجد إلى جنوبي العراق فيبدأ بتحرير الأبلة الواقعة على شط العرب ثم يتجه شمالاً باتجاه الحيرة.

ثانياً: يزحف عياض بن غنم بجيشه المرابط بين النباج والحجاز إلى دومة الجندل (الجوف) ومنها إلى المصيخ (وهي قرية على شاطئ الفرات) فيبدأ بتحرير العراق من شمالية ويلتقي بخالد بن الوليد في الحيرة، وأيهما أسبق يكون أميرا على صاحبه، أنظر، الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة -1968 1960 ج2 ص 346، طه الهاشمي، خالد بن الوليد في العراق، مجلة المجمع العلمي العراقي / مجلد 2 ,1955 ص 132.

ثالثاً: يواصل المثنى بن حارثة الشيباني غاراته على الحيرة بقصد إيهام الفرس الساسانيين عن الهجوم الرئيس واضطرارهم إلى تفريق قواتهم ثم يلتحق بجيش خالد بعد وصوله إلى العراق.

رابعاً: يتقدم خالد بن سعيد بن العاص إلى الحدود الفلسطينية ويرابط في تيماء ويتخذ منها قاعدة لحركاته الحربية والاستطلاعية مدافعا إزاء الروم وفقا للظروف التي تواجههم انظر، البلاذري أحمد بن يحي بن جابر، فتوح البلدان، دار اقرأ، بيروت 1992 ص185-188، محمود الدرة، تاريخ العرب العسكري ، بيروت 1964 ص197

(7) البلاذري، فتوح البلدان ص185-188، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ط3 بيروت 1969 ص ص 313-328.

(8) البلاذري، فتوح البلدان ص 218-219.

(9) المصدر نفسه ص ص 359-365.

(10) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، الجراح، المطبعة السلفية ط3 1382 هجرية 42-43 .

(11) هو المؤتمر الذي عقده الخليفة عمر سنة ٧١ للهجرة في بلاد الشام ودرس فيه الموقف مع قادة جيوشه وكبار الصحابة، لإعادة النظر في الموقف الحربي وتنظيم الفتوحات الجديدة، انظر، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1979 ج2 ص 91، دائرة المعارف الإسلامية، مادة (الجابية) المجلد 10 ص 374 مقال (لامانس)

(12) ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، حيدر آباد الدكن، 1986 ج1 ص323، الطبري، تاريخ ج4 ص 53-54، البلاذري، فتوح البلدان ص ٦٢ .

(13) الواقدي، محمد بن عمر، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1966ج2ص64.

(14) المصدر نفسه، والصفحة، أنظر أيضاً، ابن أعثم، الفتوح ج1 ص324.

(15) البلاذري، فتوح البلدان ص ص 260-272، اليعقوتي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، بيروت 1960 ج2 ص140، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، النجف 1967 ص 130.

(16) يذكر ابن أعثم الرقم نفسه، الفتوح ج 1:325 ، بينما يورد الواقدي أن تعداد جيش عياض كان ثمانية آلاف مقاتل، فتوح الشام ج2 ص64.

(17) البلاذري، فتوح البلدان ص216، ابن أعثم، الفتوح ج1 ص 325.

(18) وهي من المدن المهمة والعريقة في الجزيرة، تقع بين الموصل والشام، يسميها اليونان Edessa وكانت تسمى في عهد السلوقيين كالوري، وسماها العرب الرها، تدعى اليوم أورفه، ياقوت، ج3 ص106، انظر روفائيل بابو اسحاق، تاريخ

نصارى العراق، بغداد 1948 ص140.

(19) ابن البطريق، سعيد بن البطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق بيروت 1905-1909 ج2 ص20

Tell - Mahre: Chronuqe de Tellmahre, Paris 1895, p8.

Michel le syrien: Chronique de Michel, Paris 1901, Vol. 2 P.421.

اغابيوس المنبجي، العنوان المكلل بفضائل الحكمة، تحقيق لويس شيخو، بيروت 1907 ص 344

(20) فتوح البلدان ص 262.

(21) ابن أعثم، الفتوح ج1 ص329، الواقدي، فتوح الشام ج2ص64-103، اليعقوبي، تاريخ ج2 ص140.

(22) انظر، الواقدي، فتوح الشام، ج2 ص86، البلاذري، فتوح البلدان ص262-266.

(23) أبو يوسف ، الخراج ص 42.

(24) البلاذري، فتوح البلدان ص262.

(25) المصدر نفسه ص264.

Segal J.B, Edessa and Harran, London 1963, P6. (26)

(27) الواقدي، فتوح الشام ج2 ص127، أبو يوسف، الخراج ص40، البلاذري، فتوح البلدان ص264.

(28) البلاذري، فتوح البلدان ص265.

Tell- Mahare, opcit; Michel opcit, vol. 2 p 420. (29)

Tell- Mahre, opcit; p.8 (30)

(31) البلاذري، فتوح البلدان ص٦٦٢.

(32) المصدر نفسه ص450، ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ليدن 1302 هجرية ص128.

(33) البلاذري، فتوح البلدان ص180.

(34) المنبجي، العنوان المكلل ص ص 344، 364. Michel, opcit, vol.2 p420.

(35) جاء في القرآن الكريم ((... لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون)) المائدة 82.

(36) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، بيروت، د.ت ص64.

(37) الطبري، تاريخ ج 4 ص21، ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين الشيباني، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت 1965 ج2 ص147-150.

(38) أفرام عبدال، اللؤلؤ النضيد في تاريخ دير مار بهنام الشهيد، الموصل 1951 ص59، ألبير أبو نا، تاريخ الكنيسة الشرقية، الموصل 1985 ص57.

(39) الجاثليق: رتبة كنسية خاصة بالكنيسة السريانية، وهي دون البطريق وفوق الأسقف، برصوم، اللؤلؤ المنثور ص 205.

Iso yaba IIII, Libre Epistularum, Ed. By Duval, Paris 1904, P. 182. (40)

(41) المفريان: رتبة كنسية مرادفة للجاثليق عند النساطرة، برصوم، اللؤلؤ المنثور ص 502.

(42) بطرس نصري، ذخيرة الأذان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، مطبعة الآباء الدومنيكان، الموصل 1905 ج1 ص331.

(43) مار: كلمة معناها السيد تطلق على القديسين والبطاركة والأساقفة، برصوم، اللؤلؤ المنثور ص 502.

(44) روفائيل ميناس، الوثنية والمسيحية في الشرق، مجلة المجمع العلمي العراقي، عدد خاص بهيئة اللغة السريانية، المجلد 9، بغداد 1985 ص 281-282.

(45) الطبري، تاريخ ج 4 ص54.

(46) أشارت بعض المصادر إلى وجود مقاومة عنيفة من بعض المدن مثل رأس العين وطور عابدين ودارا، انظر البلاذري، فتوح البلدان ص 265، الواقدي، فتوح الشام ج1 ص98-107، ابن أعثم، الفتوح ج1 ص 336-339.

(47) الواقدي، فتوح الشام ص ص 142,140,112,111,99,98.

(48) ابن الأثير، الكامل ج2 ص314.

(49) أبو يوسف، الخراج ص 120، يحي بن آدم، كتاب الخراج، القاهرة 1347 للهجرة ص 65. فحين قرر الخليفة عمر (رض) أن يحاربهم ((... حتى يبيدهم أو يسموا، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة، وقالوا: أما إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنا نرضى ونحفظ ديننا)) البلاذري، فتوح البلدان ص 273.

(50) الباعوث: دعاء أو صلاة علنية، وكانت العادة أن يطاف به خاصة في الأيام الحافلة كعيد الشعانين انظر: برصوم، اللؤلؤ المنثور ص497.

(51) البلاذري، فتوح البلدان ص 262.

(52) واسم هذا البطريق (بنطس) بينما يذكر الواقدي أن اسمه (يوحنا)، فتوح الشام ج2 ص65.

(53) ابن أعثم، الفتوح ج2 ص327-328.

(54) أبو يوسف، الخراج ص 120، ابن آدم، الخراج ص 56، البلاذري، فتوح البلدان ص 272.

(55) المدُ (بالضم) وهو رطلان أو رطل أو ثلث ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه سمي مدا، الفيروز أبادي، القاموس المحيط ط٢ القاهرة 1952 ج 2 ص 373.

(56) البلاذري، فتوح البلدان ص263.

(57) المصدر نفسه والصفحة.

(58) المصدر نفسه ص 261.

(59) وربما كان سبب هذا التباين تعديلات أجريت على نص المعاهدة الأول في أوقات متأخرة أثناء عملية التحرير التي امتدت من 18 للهجرة إلى سنة 20 للهجرة.

(60) القشيري، أبو علي محمد بن سعيد، تاريخ الرقة، تحقيق طاهر النعساني، حماة 1959 ص6-7.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

(1) القرآن الكريم.
(2) ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي الشيباني (ت 639 للهجرة /1232م) الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت 1965.
(3) ابن آدم ، يحي القرشي (ت 206هـ / 818م) كتاب الخراج، القاهرة 1347 للهجرة.
(4) ابن أعثم الكوفي (ت 314هـ/926م) كتاب الفتوح، حيدر أباد الدكن، الهند 1968.
(5) ابن البطريق، سعيد بن بطريق الرومي (ت 328 للهجرة/ 939م) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت 1905-1909.
(6) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 للهجرة / 1405م) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956.
(7) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت 681 للهجرة /1282م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1984.
(8) ابن خياط، أبو عمر خليفة (ت 240 للهجرة/854م) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، النجف 1967.
(9) ابن الفقيه الهمذاني (ت 289 للهجرة /798م) مختصر كتاب البلدان، ليدن 1302 للهجرة.
(10) أبو يوسف، يعقوب ابن إبراهيم (ت 182 للهجرة/798م) الخراج القاهرة، 1382 للهجرة.
(11) البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر (ت279 للهجرة/892م) فتوح البلدان، بيروت 1992.
(12) الطبري، محمد بن جرير (ت310 للهجرة /922م) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1960-1969).
(13) الفيروز أبادي، محي الدين محمد بن يعقوب (ت817 للهجرة /1318م) القاموس المحيط، القاهرة 1952.
(14) القشيري، أبو علي محمد بن سعيد (ت 334 للهجرة /954م) تاريخ الرقة، تحقيق طاهر النعساني حماة 1959.
(15) ماري بن سليمان (ت القرن5 للهجرة / 11) أخبار بطاركة كرسي المشرق من المجدل، روما 1988.
(16) المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين الرومي (ت القرن 3 للهجرة / 9م) العنوان المكلل بفضائل الحكمة، تحقيق لويس شيخو، بيروت 1907.
(17) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت207 للهجرة /822م) فتوح الشام، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1966.
(18) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 284 للهجرة /897 م) تاريخ اليعقوبي، بيروت 1960.

ثانيا: المراجع:

(1) أدي شير، كلدو وآثور، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912-1913.
(2) اغناطيوس برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ الآداب السريانية، بغداد 1976.
(3) أفرام عبدال، اللؤلؤ النضيد في تاريخ مار بهنام الشهيد، الموصل 1951.
(4) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، الموصل 1973.
(5) القس بطرس نصري، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، الموصل 1964.
(6) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، بيروت د-ت.
(7) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، منشورات دار البيان، بغداد 1973.
(8) محمد حميد الله الحيدر أبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ط 3 بيروت 1969.

(9) محمود الدرة، تاريخ العرب العسكري، بيروت 1964.

ثالثا: المقالات:

(1) روفائيل ميناس، الوثنية والمسيحية في الشرق، مجلة المجمع العلمي العراقي عدد خاص بهيئة اللغة السريانية المجلد9 بغداد 1985.

(2) طه الهاشمي، خالد بن الوليد في العراق، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 2 بغداد 1955.

رابعاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

(1) Michel The Syrian, : chronique de Michel. Ed. By J.B. Chabot. Paris 1899-1901.

(2) Segal, J.B, : Edessa and Harran. London 1963.

(3) Tell - Mahre, Dionysius: chronique de Denys de Tellmare. Ed. And Trans. By J.B. chabot. Paris 1895.

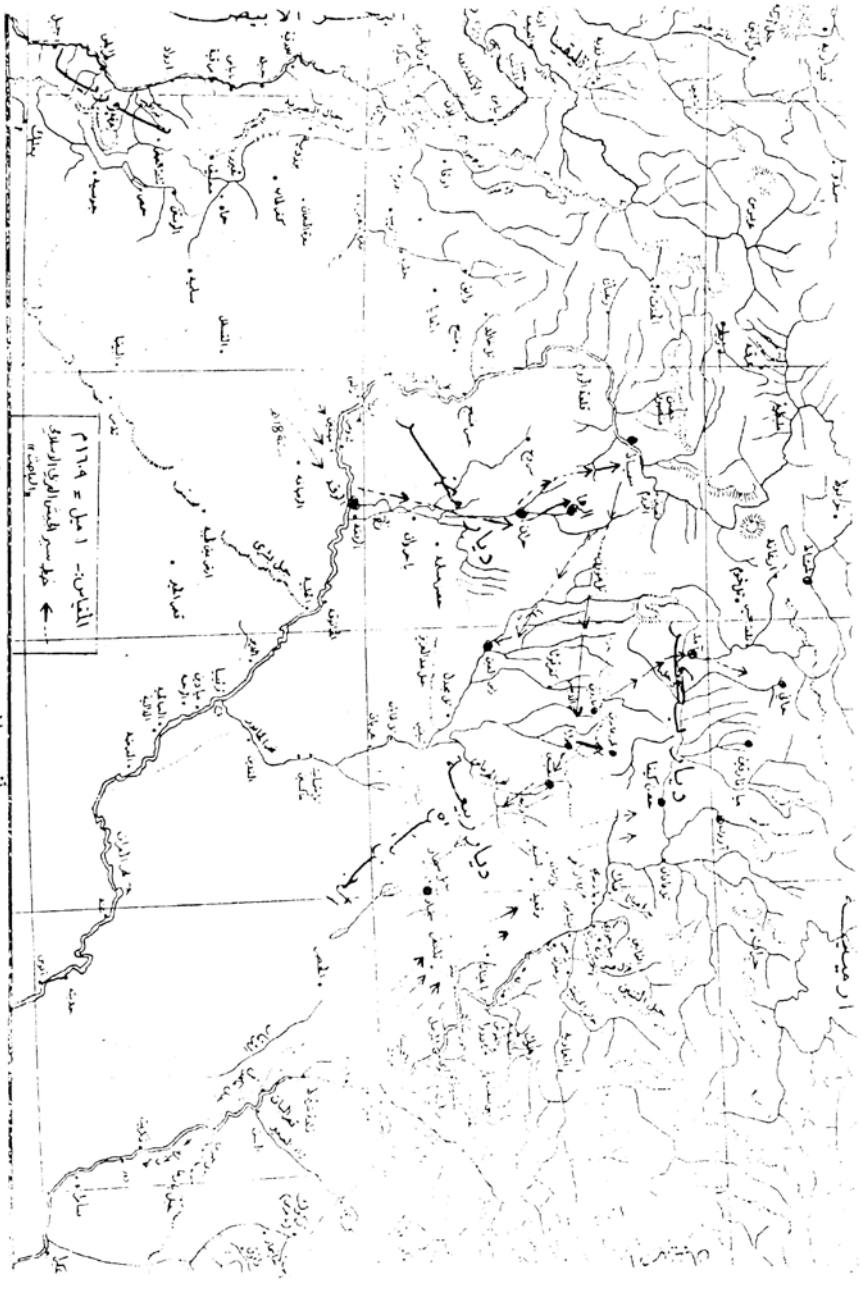

تحرير الجزيرة الفراتية 18هـ/639م